مجلة أبحاث
ISSN: 0834-2170
EISSN2661-734X
المجلد 07 / العـدد: 02 (2022)، ص 60-71

أئمة وفقهاء الدولة الرستمية ودورهم في الحياة الاقتصادية للمغرب الأوسط أئمة وفقهاء الدولة الرستمية ودورهم في الحياة الاقتصادية للمغرب الأوسط

(160هـ-296هـ/777م- 909)

Imams and jurists of the Rustamiya state and their role in economic life Middle Maghreb

(160 AH-296 AH / 777 AD - 909)

الدكتور: أحمد شارف* جامعة زيان عاشور-الجلفة. **a.charef@univ-djelfa.dz**

تاريخ الاستلام: 09 /2022/09 تاريخ القبول: 12 /2022/12 تاريخ الاستلام: 31 /2022/12

ملخص البحث:

تعاقب على حكم بلاد المغرب الأوسط (الجزائر) بداية من منتصف القرن الثاني دول لها مذاهب وسلالات عدة، فحكمت الدولة الرستمية الإباضية (الخارجية) في الفترة ما بين (160هـ-296هـ/777م- 909) وينحدر الرستميون من أصل فارسي، وجاء من بعدهم الفاطميون الإسماعيليون الشيعة فحكموا في الفترة ما بين (297-363هـ/911-974م) وبداية من منتصف القرن الخامس حكمت صنهاجة الأمازيغية ذات المذهب المالكي السني.

صاحب هذه التحولات السياسية تحولات في الحياة الاقتصادية والاجتماعية، في هذا المقال سلطت الضوء على دور وتأثير أئمة (حكام) الدولة الرستمية وفقهائهم في الحياة الاقتصادية، وتبين من خلال المصادر القديمة والدراسات الحديثة أن هؤلاء الأئمة والفقهاء كان لهم أثر كبير في تنشيط الحياة الاقتصادية خاصة التجارة منها، واستمر هذا النشاط إلى آخر عهدها حيث اشتغل الأئمة بالنزاع على السلطة، وآلت بضعفهم السياسي إلى ضعف مسّ جميع جوانب الحياة، فتمهدت الطريق للفاطميين في بسط نفوذهم على بلاد المغرب وإفريقية.

الكلمات المفتاحية:أئمة ، فقهاء ، الدولة الرستمية ، الحياة الاقتصادية، المغرب الأوسط.

Abstract:

The rule of the Middle Maghreb, starting from the middle of the second century, was followed by states with several sects. The Rustamiya state ruled in the period between (160 AH - 296 AH / 777 AD - 909) and the Fatimids came after them, and they ruled in the period between (297-363 AH / 911-974 AD). From the middle of the fifth century, the Berber Sanhaja, with the Sunni Maliki school of thought, ruled.

The article sheds light on the role and influence of the Imams (rulers) of the Rustamiya state and their jurists in economic life, and it was found through ancient sources and modern studies that these imams and jurists had a great impact in revitalizing economic life, especially trade, and this activity continued until the end of its era when the imams were engaged in conflict Their political weakness led to the weakness of touching all aspects of life, thus paving the way for the Fatimids to extend their influence over the countries of the Maghreb and Africa.

Keywords:

Imams, jurists, the Rustamiya state, economic life, the Middle Maghreb.

* الدكتور : أحمد شارف a.charef@univ-djelfa.dz

. مقدمة:

يُعد الجانب الاقتصادي المادي من الجوانب المهمة في الدولة، والتي يمكن أن نقيس بها أداء الحكام ومُنَظِريهم ومُنَفذيهم، وفي هذا المقال نعود إلى تاريخ الجزائر في العصر الوسيط لنبحث عن هذا الجانب الاقتصادي أيام الدولة الرستمية، ذات المذهب الإباضي، من خلال طرح الإشالية التالية: ما مدى مساهمة أئمة وفقهاء الدولة الرستمية في الحياة الاقتصادية لمجتمع المغرب الأوسط؟

وللإجابة عن هذا التساؤل نحن أمام عدد من الفرضيات تتمثل في أنه قد يكون لهؤلاء الأئمة دوراً كبيراً في تنشيط الحياة الاقتصادية، على اعتبار ان هؤلاء الأئمة كانوا يدعون إلى العدالة والمساواة، هذا من جهة، ومن جهة ثانية فهم ينحدرون من أصل فارسي له مكانته في التاريخ والحضارة، وإذا كان هناك دور إيجابي فإننا نفترض قيام حركة نشيطة داخلية، وعلاقات مفتوحة خالاجية.

ويهدف هذا البحث إلى إبراز صفحة من صفحات تاريخ الجزائر، والقيام بعقد مقارنة بين تلك الأنظمة ذات المذاهب المختلفة، فيما يتعلق بالمجتمع حينذاك. وبحث الواقع الاقتصادي ودور الأئمة فيه ليس صعباً فحسب حتى إذا ما توفرت المادة الخبرية فكيف بنا ونحن نتناول موضوعاً يعود إلى القرنين الثاني والثالث الهجريين/ الثامن والتاسع الميلاديين، ودور الأئمة قد يظهر أحياناً ويختفي أحياناً أخرى، كما أنّ الكتابات التي تتناوله وتؤرخ له هي التي تَغِيبُ أو تُغَيّبُ، كما نجد أن الكتابات القديمة متضاربة أحياناً كتضاربها في مسألة حكم أراضي البلاد المفتوحة بين العنوة والصلح.

وجرت العادة في كثير من التحولات السياسية تقوم الدولة الناشئة بطمس كل ما له علاقة بالدولة السابقة خاصة فيما يتعلق بالآثار الفكرية، مثلما جرى لمكتبة تيهرت "المعصومة" التي أحرقها العبيديون، إلا أننا نستثني من هذا الكلام ابن الصغير المالكي الذي كتب باعتدال عن تاريخ الدولة الرستمية في كتابه الذي يُعد المصدر الأول للدولة الإباضية والذي اعتمدت عليه في بحثي هذا، كما اعتمدت على رسالة أستاذنا الدكتور إبراهيم بحاز حول الدولة الرستمية، وفي ختام هذه المقدمة أقول إن عملية رسم صورة دقيقة وواضحة عن الماضي عملية صعبة، فكيف بإصدار الأحكام، ولذلك ما نخلص إليه في هذا البحث مقاربة عن الواقع الاقتصادي ودور الفقهاء فيه. وتبقى هذا المقاربة المتواضعة محاولة لكشف صفحة من صفحات تاريخنا المجيد.

2. السياسة الأموية في المغرب ودورها في ظهور التيارات الخارجية (الصفرية والإباضية)

1.2 السياسة المالية الأموية وظهور ثورات الخوارج:

هناك عدة عوامل أضعفت السلطة الأموية في المغرب، وتصدعت مكانتها ومهدت الطرق للتيارات المعارضة، ومن بين تلك الأوضاع اشتداد العصبية بين الولاة اليمنية والقيسية ما أدى إلى الاضطراب والضعف على مستوى السلطة، إضافة إلى ما ذكرت من عامل التمييز العنصري بين العرب والبربر خاصة في الجبايات.

كما كانت سياسة التمييز العنصري، ومن الأمثلة عن التمييز العنصري ما كان بين العرب والبربر أن ضريبة الخراج في بداية الأمر كانت تخص أهل الذمة فقط، وحين تزايدت أعداد معتنقي الإسلام من البربر خاصة في عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز (99-101هـ/718-720م) بفضل العدل والمساواة وتراجع عدد أهل الذمة ، ما أدى إلى نقص موارد الدولة، وما إن انقضى عهد خلافة عمر بن عبد العزيز حتى انقلبت سياسة ولاة بني أمية في المغرب، خاصة في الجانب المالي، وقد يكون ذلك تعويضاً للخلفاء على ما فقدوه من امتيازات في عهد الخليفة عمر وأدت

سياسة الولاة في القرن الثاني إلى انتفاضة البربر وشهرهم السلاح ضد ولاة الأمويين، وانتهز الفرصة دعاة الخوارج من صفرية وإباضية ودعوا بقوة إلى مبادئهم في التسوية المطلقة بين العرب والموالي من بربر وغير بربر في جميع الحقوق والشئون المالية.

وسجلت لنا المصادر تلك التجاوزات المالية وما أدت إليه من أحداثٍ تمثلت في معارضة البربر ومن معهم من أئمتي فرقتي الصفرية والإباضية للسياسة الأموية في بلاد المغرب، خاصة فيما يتعلق بالسياسة المالية، ومن تلك التجاوزات ما قام به يزيد بن أبي مسلم (101هـ-102) صاحب شرطة الحجاج بن يوسف في العراق (ابن عبد الحكم فتوح مصر والمغرب، 1415 هـ، ص242) فقد مارس سياسة معلمه في المغرب، وفرض الضرائب الباهظة ما أدى إلى قتله في حدود شهر من توليه (ابن خلدون، العبر، 240/4) أما عن سياسة الوالي عبيد الله بن الحبحاب التي تميز بين المسلمين عرباً وبربراً في الجانب المالي، فيقول عنها ابن عذارى: « وأراد تخميس البربر وزعم أنهم فيء المسلمين وذلك ما لم يرتكبه عامل قبلة وإنما كان الولاة يخمسون من لم يجب للإسلام فكان فعله الذميم هذا سبباً لنقض البلاد ووقوع الفتن العظيمة المؤدية إلى كثير القتل في العباد » (ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب، 1983. 1/ 52)

ولا شك أنه في فترة ما بعد عمر بن عبد العزيز أصبح للولاة نفوذ كبير فيما يتعلق بالجانب المالي، ما أدى إلى نمو الثروة في يد فئة الولاة والجند والجباة، دون وجه حق، فالسياسة المالية والاقتصادية لجل الولاة الأمويين في الفترة الأخيرة لم تستند على الأحكام الفقهية، وإنما كانت استجابة للأطماع الخاصة، فقد أثرى هؤلاء الولاة ثراءا فاحشا، وامتلكوا من العقارات الواسعة والأموال الكثيرة، ما أثقل كاهل الرعية، فانقلبت على سلطانهم، وأنهت نفوذهم (حسين مؤنس، ثورات البربر في إفريقية والأندلس المجلد 10) وكان قد اعتبر بعض الولاة بلاد البربر دار حرب حتى بعد اعتناقهم الاسلام (فلهوزن يوليوس، تاريخ الدولة العربية ، 34)

ويشير إسماعيل محمود إلى نوع من التوافق الفكري بين الخوارج والبربر، فهم يبتعدون عن التأول، ويرفضون التقية، بالإضافة إلى قبول الإمامة خارج قريش، وفي ذلك تمكين للعنصر غير العربي، وهو ما يشترك فيه البربر مع غيرهم من الموالي(اسماعيل، الخوارج، 41)

إلا أننا لا نعزوا ظهور حركة المعارضة إلى العوامل المادية - المتمثلة في السياسة المالية المجحفة، أو العوامل الاجتماعية المتمثلة في التمييز العنصري بين العرب والموالي- فحسب، فهذه العوامل المادية والاجتماعية –على أهميتها- لم تكن لتؤسس في البربر حركة معارضة منظمة سياسياً ووعسكريا في غياب التنظيم المذهبي، إن تياري الصفرية والإباضية في بلاد المغرب حركات فكرية مذهبية معارضة لنظام الحكم الأموي، وهي امتداد لحركات المعارضة في المشرق بدليل التواصل الثقافي والمادي بين مركز الخوارج في البصرة الذي يعمل على بث المذهب في ربوع الدولة الاسلامية (محمود إسماعيل، 19) والمغرب الاسلامي، وكان مركز البصرة يحفل بأبرز دعاة المذهب ومنهم جابر بن زيد وأبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة ، كما أن الخوارج في المشرق تلقوا هزائم متتالية دفعت بهم إلى العمل على الانتقال إلى مناطق بعيدة عن مركز الخلافة في المشرق (ابن خلدون، العبر، 167/3) وعليه نقول إن

السياسات الأموية في الجانبين المالي والاجتماعي أدت إلى توسيع دائرة الاحتجاج والمعارضة واعتناق البربر لفكر هذه التيارات.

وإزاء هذه السياسات التعسفية لا نسجل ذِكراً لدور فقهاء المغرب في عصر الولاة، وقد يرجع ذلك إلى كون هذه الفترة هي فترة مبكرة سابقة لظهور المذاهب الفقهية السنية المعروفة، والتي بدأت تظهر مع عهد الدولة العباسية، هذا من جهة، ومن جهة ثانية تجنب الفقهاء المعاصرين للدولة الأموية الخوض في معارضة سياسات الدولة الأموية، وهذا بخلاف التيارات المعارضة خاصة الخارجية، فقد أسهمت هذه السياسات في نشر أفكار أئمة الصفرية والإباضية الداعية للمساواة بين العرب والموالي، ومنع الجور والاعتداء، بل وإلى المطالبة بإمامة خارج قريش(شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، 1960. 28/9)

إن ما وقع في بلاد المغرب من ثورات واضطرابات تزامن مع ما كان يجري في المشرق باستمرار من حروب الخوارج من جهة، ونمو حركة المعارضة العلوية ثم العباسية ضد الأمويين، هذه الأوضاع الداخلية والخارجية ساعدت حركة ثورة البربر ومؤطريهم من دعاة وفقهاء الصفرية والإباضية ضد الولاة الأمويين في المغرب.

2.2 فقهاء الإباضية ودورهم في الثورة على الأمويين ونشر المذهب:

تشير بعض المصادر إلى أنه قدم من البصرة إلى القيروان سلمة بن سعد(الشماخي، السير، ص ص 90 -91) ومعه عكرمة (ت105هـ) مولى ابن عباس، الأول يدعو إلى الإباضية والثاني يدعو إلى الصفرية (الجرجاني، في ضعفاء الرجال، 1987 . 6/ 471) فالفرقتان تزامنتا في الظهور في بلاد المغرب، لا يعني الاتفاق الفكري والعملي، فرغم المصاهرة التي كانت بين أئمة الدولتين في البداية(ابن خلدون، العبر، 6/ 172) إلا أن العلاقة انتهت بالاقتتال(اسماعيل محمود، 47) الذي يكشف لنا عن شدة الاختلاف في بينهما .

فالمذهب الإباضي أكثر اعتدالا من المذاهب الخارجية الأخرى، فهو يحرم دماء المسلمين، وسبي ذراريهم وغنيمة أموالهم، كما اعتبر دُورَ مخالفيهم دُورَ توحيد، إلا معسكر السلطان فهو دار بغي، أما موقفهم من مرتكب الكبيرة فهو موحد، وإن كفروا فكفروا كفر نعمة لا كفر ملة، ولا يحرمون مناكحة المسلمين (البغدادي، الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية، 1977، 82، 83) و هذه الأحكام التي تميل في مجملها إلى نوع من الاعتدال جعلت ابن خلدون يصفهم بأنهم أقرب فرق الخوارج إلى أهل السنة(ابن خلدون، العبر، 3/ 182) وأثبت التاريخ خاصة في مثال الدولة الرستمية هذه الأحكام فقد استطاع أئمة الدولة أن يحتووا عناصر شتى ومذاهب مختلفة في دلتهم في تعايش قلّ نظيره في الدول التي فيها مذاهب مختلفة.

ويُعتبر جابر بن زيد(ت 96 هـ) الإمام الأول عند الإباضية، وعند وفاته المبكرة خلفه أبو عبيدة مسلمة بن أبي كريمة(ت نحو 145) الذي مكث يتعلم أربعين عاما لتولى تنظيم الجماعة الإباضية في البصرة والدفاع عن مبادئها، وهو من بعث سلمة بن سعيد إلى القيروان ليتولى نشر مبادئ المذهب الإباضي (الشماخي، السير، 78-80)

ومن أجل نشر المذهب وتعاليمه الدينية والفقهية في المغرب تم اختيار جماعة من بلاد المغرب وإرسالها إلى البصرة، وكان من بين هؤلاء عاصم السدراتي(الشماخي، المصدر السابق، 126) من غرب الأوراس وعبد الرحمن بن رستم وظل هؤلاء صحبة أبي عبيدة خمس سنوات(محمود اسماعيل، المرجع السابق ، ص 55) يتلقون مبادئ وأصول المذهب، ليتولون نشره والإعداد لظهور الإمامة الإباضية .

واندلعت عدة ثورات في بلاد المغرب ضد ولاة الدولة الأموية، تدعو إلى مناهضة الظلم والتمييز وإقامة العدل والمساواة، ولعل أشهرها ثورة ميسرة البتري الصفري، ولم تشر المصادر عن شيء يخص ميسرة، غير أنه قدم من القيروان، وقد يكون التقى داعية الصفرية عكرمة .

وعُرِف ميسرة بتشدده وتزهده، فقيل "الفقير" وقاد الثورة في طنجة، وتوجه إلى ناحية السوس الأدنى، فاستولى عليها وقتل عاملها اسماعيل بن عبيد الله بن الحبحاب، وانظم إليه عناصر بترية مثله، ودعا لنفسه بالإمامة، على جماعة الصفرية، وهنا أرسل عبيد الله بن الحبحاب جيشا عربيا إلى ناحية طنجة لقتال الصفرية التي تمكنت من العرب في موقعة الأشراف (123هـ/741م) (ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب، 246) وتمكن حميد الزناتي الصفري من جيش بلج بن بشر الذي ترك المغرب وفرّ إلى الأندلس (ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب، 248)

ومن مكناسة اجتمعت الصفرية فنقضوا طاعة العرب وولوا عليهم عيسى بن يزيد الأسود من موالي العرب ورؤوس الخوارج واختطوا مدينة سجلماسة سنة 140هـ ودخل أهل مكناسة في مذهبهم واقتطعوا سجلماسة وأعمالها بعيدا عن نظر الولاة بالقيروان(السلاوي ، الاستقصاء، 1/ 180)

واستغلت الصفرية أوضاع السلطة في إفريقية من تنافس بين المضرية واليمنية، وصراع على الولاية بين أبناء حبيب بن عبد الرحمن الفهري الوافد من الأندلس والذي أنهى ولاية حنظلة بن صفوان الكلبي، فثارت الصفرية وتمكنت من القيروان، وعاثت فيها فسادا، ولم تدم سلطتها على القيروان إلا سنة وبضعة أشهر فقد استولى أبو الخطاب عبد الاعلى بن السمح المعافري على القيروان (141هـ/758م)، وعين عبد الرحمن بن رستم عاملا عليها (تاريخ ابن خلدون 6/ 146) لكن محمد بن الأشعث والي مصر جهز جيشاً قويا نحو القيروان، ودحر أبا الخطاب بن السمح وجموعه، فغادر عبد الرحمن بن رستم القيروان متجهاً نحو المغرب الأوسط وبها شرع في بناء مدينة تيهرت سنة 144هـ/ 761م. واجتمعت إليه طوائف البربر الإباضية من لماية ولواتة ورجالة ونفزاوة (ابن خلدون، العبر، 6/ 147) فأصبحت تيهرت مأمناً لاباضية جبل نفوسة، من ولاة إفريقية(مجموعة من المؤلفين، الجزائر في التاريخ، ص67) وتصبح بذلك عاصمة لأول دولة مستقلة في المغرب الأوسط سنة 160هـ(الشماخي، 124)

ويظهر أن تراجع الصفرية وظهور الإباضية يعود لاختلاف منهجهما، كانت الصفرية أكثر تطرفاً وتشدداً، بينما كانت الإباضية أكثر اعتدالا في آرائها وانفتاحاً على الطوائف الأخرى(الشماخي، 124) وقد أسهم عدد معتبر من فقهاء الإباضية في تنشيط الحياة الفكرية في المغربين الأوسط والأدنى في عصور مختلفة.

ومع تأسيس الدولة الرستمية بدأ النشاط الفقهي الإباضي ، وتوسع بتوسعها في جميع المجالات، كما أن التنوع المذهبي لبلاد المغرب –في عصر الرستميين- أسهم في ظهور الاجتهاد الفقهي الإباضي في جميع المسائل، واصطلح على الفقهاء في المصادر الإباضية بمصطلح " المشائخ" فكان لهم دور واضح في خدمة الفقه ببلاد المغرب الأوسط وحتى الأدنى، وكان أئمة الدولة فقهاء، فلم يتولوا منصب الإمامة إلا لعلمهم بالفرائض وفقههم الغزير (بحاز ، الدولة الرستمية دراسة في الأوضاع الاقتصادية والحياة الفكرية، 1994، ص311) وشهدت مساجد إفريقية حلقات الصفرية والإباضية التي كانت تُعْقَدُ حتى تولى الإمام سُحْنُونُ بْنُ سَعِيدِ بْنِ حَبِيبٍ التَّنُوخِيُّ القضاء سنة 234هـ فحظر عليهم ذلك، ودرج من جاء بعده من القضاة على منعهم وتفريقهم وتشتيت شملهم(موسى لقبال، الحسبة المذهبية، ص44)

وكان البيت الرستمي بيت علم، فعبد الرحمن بن رستم بويع بالإمامة لعلمه وفضله، ولعدله وزهده(الشماخي، السير، 125) وكان لابنه خلواته العلمية الخاصة التي يرتادها طلبة العلم(محمود اسماعيل، الخوارج، ص298) كما أن

الإمام أفلح قبل أن يتولى الإمامة قد طلب من أبيه عبد الوهاب التوجه إلى بلاد كوكو فأبى أبوه ذلك، لخطإ واحد صدر منه في مسألة فقهية في البيوع امتحنه فيها (بحاز ، المرجع السابق، ص231)

2. 3 نماذج عن أعلام الفقه الإباضي في المغرب:

حفظت لنا كتب التراجم سِيَر عددٍ معتبر من كبار الفقهاء سواء أيام الدولة الرستمية أو بعد زوالها، نذكر من بينهم على سبيل المثال:

أبوعبيدة الأعرج الإباضي: هو من أبرز أعلام الإباضية ، يقول عنه ابن الصغير: " كلهم (الإباضية) مُقِرُونَ له بالفضل، معترفون له بالعلم، مسلمون له في الورع، إذا اختلفوا في أمر من الفقه أو من الكلام صدروا عن رأيه، ...المغرب كله مفتونا بهذا الرجل، حتى إن من كان من الإباضية بسجلماسة يبعثون إليه بزكاتهم يصرفها حيث شاء (ابن الصغير المالكي، 83-84) والعبارة الأخيرة تشير إلى مكانته و تضلعه في القضايا المالية.

يزيد بن فندين الإباضي النكار: هو أحد أعضاء مجلس الشورى الذي عينه عبد الرحمن بن رستم لخلافته في إمامة الدولة الرستمية، عارض إمامة عبد الوهاب، وترك فكرا مخالفا للإمامة الإباضية، وبذلك انقسمت الإمامة الإباضية في المغرب منذ سنة 171هـ إلى وهبية هم أتباع عبد الوهاب بن عبد الرحمن ونكارية هم أتباع يزيد بن فندين النكاري، وسموا بالنكارية لمعارضتهم لإمامة عبدالوهاب (بحاز، الدولة الرستمية، ص314) والقاضي يعقوب بن يوسف بن سهلون الطرفي الورجلاني:عالم فقيه فطن ذكي، ورع زكي ذو الجهادين الأكبر والأصغر، اشتغل الطرفي بالقضاء والفتيا (الدرجيني، أبو العباس، طبقات المشائخ بالمغرب، ، 1974، 2/ 213)

الإمام أبو اليقظان المحتسب:مارس أئمة الإباضية الحسبة بأنفسهم، فكانت منذ الأئمة الأوائل، بدليل ما ذكره ابن الصغير من أن الإمام أبوبكر بن أفلح (258-261) صرف النظر في مدينة تيهرت وأحوازها إلى أخيه أبي اليقظان، وذلك بعد عودته من بغداد (بحاز، المرجع السابق، ص247) فكان أبو اليقظان يركب دابته ويطوف بالمدينة حتى أقصاها، ويحكم في الأمر الضروري دون أن تأخذه في الله لومة لائم، كانت له جولتان، واحدة أثناء النهار، والثانية في الليل، ويتصل بأخيه مرتين في اليوم والليلة، ليطلعه على أحداث المدينة.

الفقيه أحمد بن محمد بن بكر الإباضي مؤسس العزابة :

استمر المذهب الإباضي بعد زوال الدولة الرستمية، ففى القرن الخامس أيضاً يلمع بين الإباضيين فقيه يدعى أحمد بن محمد بن بكر ولد لأبيه القادم إلى وادى ميزاب من جبل نفوسة بليبيا. ويقال إن أباه هو الذى أسس هيئة العزابة فى بلدان قرى ومدن ميزاب، ويقال بل مؤسسها هناك ابنه أحمد المذكور المتوفى سنة 504 هـ كما يذكر معمر فى كتابه الإباضية فى موكب التاريخ، وهى هيئة دينية عليا تشرف على جميع شئون المجتمع الإباضى فى كل مدينة وقرية ومنها يختار شيخ البلد والمفتى (شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، 101/10) وناظر الأوقاف ومؤدّب الناشئة والمؤذن والإمام. وكان أحمد فقيها وله من المصنفات كتاب أحكام الحرب وكتاب القسمة وكتاب أصول الأرضين فى كل ما يتصل بها من شئون الملكية والاستثمار والضرائب وهو فى ستة أجزاء، وله أيضا كتاب الألواح وكتاب تبين أفعال العباد(شوقي ضيف، المرجع السابق، 101/10)

وكما ذكرت سابقاً فالمذهب الإباضي لم يزل بزوال الدولة الرستمية، بعكس المذهب الشيعي، بدليل، فالمذهب الإباضي بقي قائماً، كما أننا نجد أنه لا يخلو قرن من القرون من فقهاء من الإباضية في بلاد المغرب الأوسط. كما يتبين أنه كان لهؤلاء الفقهاء أثر في توجيه الحياة الاقتصادية، إلا أن تراث إباضية الدولة الرستمية المكتوب ضاع مع حرق العبيديين للمعصومة (مبارك الميلي ، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، تق: محمد الميلي، المؤسسة الوطنيّة للكتاب

بالجزائر،2/ 77) ولذلك نجد أن كتاب ابن الصغير المالكي "تاريخ الأئمة" هو لحد الآن المصدر الوحيد الأبرز لتاريخ الدولة وأئمتها وسياستهم.

3. نشاط أئمة الدولة الرستمية في الحياة الاقتصادية وأثرهم في الرخاء المادي:

1.3 دور الأئمة في بعث النشاط الزراعي:

كما ذكرت آنفاً، فإن الكلام عن التاريخ السياسي للدولة الاسلامية في القرون الأولى من الصعوبة بمكان، فما بال الحديث عن الدولة الرستمية وعن واقعها الاقتصادي، ذلك أن المصادر التاريخية أحجمت عن ذكر تاريخ الرستميين إلا في صراعاتهم مع غيرهم، أما المصادر الإباضية فقد غرقت في ذكر سير الأئمة والمشائخ، وأهملت جوانب الحياة الاخرى بما فيها الجانب الاقتصادي إلا ما جاء عرضاً (بحاز، 139 – 140)

وبيّن الدكتور إبراهيم بحازه في بحثه عن الدولة الرستمية أهم الأقاليم الجغرافية التي تتربع عليها الدولة، وخصائص مناخها وتربتها، ويمكن اجمال ذلك في التنوع بين ثلاثة أقاليم: إقليم تلي خصب التربة وفير المياه، صالح لجل المحاصيل خاصة الخضر والفواكه، ويشمل هذا الاقليم على منافذ الدولة الخارجية، وإقليم داخلي صالح للرعي، وانتاج الحبوب، وإقليم صحراوي يتربع على مسالك التجارة الصحراوية (بحاز، 138 – 139)

أسهم الفقهاء والأئمة الإباضية إسهاماً كبيراً في تحسين الوضع الاقتصادي والاجتماعي لأهل المغرب الأوسط، حتى إنه ليمكننا أن نعتبر أن المغرب الأوسط عرف أفضل عصوره تحت حكم الدولة الرستمية إذا استثنينا الفترة الأخيرة من حكم الأئمة المتاخرين، إذ عرفت فتناً واضطرابات ونزاعات عصفت بالدولة الرستمية، وما يعنينا في هذا البحث هو دور الأئمة في الحياة الاقتصادية وأثر ذلك على المجتمع، فقد أدرك هؤلاء الأئمة كيف يؤسسون لدولة تجمع بين الالتزام بالمذهب والانفتاح على المذاهب الأخرى، دولة تجمع بين المحافظة على القيم الروحية والاجتهاد في التحصيل المادي.

وأول نشاط نتكلم عنه في الحياة الاقتصادية هو النشاط الزرعي، ويشمل الانتاج الزراعي والحيواني إذ كانت الدولة الرستمية مصدراً أساسيا لهما، وكان هذا الانتاج الزراعي بتأثير الأئمة الذين شجعوا على النشاط الزراعي في جميع ربوع الأقاليم التابعة لهم، كما كانوا هم أنفسهم من ملاك الأراضي، حتى إنه يمكن القول إنه طيلة مائة وثلاثين سنة من الحكم لم تعرف الدولة أزمة غذاء رغم الاضطرابات التي عرفتها في الأخير، بل إنها كانت تصدر فائضها إلى الأندلس خاصة أيام محنها (بحاز، المرجع السابق، 158) باستثناء فترة المجاعة العامة التي شملت المشرق والمغرب سنة 260هـ .(السلاوي، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، 1/ 236)

عند تصفح كتب الجغرافيين والرحالة نجد أن ما عرفته حواضر بلاد المغرب الأوسط في العهد الرستمي من عمارة في البنيان وزراعة وغراسة للأرض لم تعرفه في الفترة التي سبقتها، ويرجع ذلك إلى عاملين رئيسيين، الأول طبيعي يتمثل في موقعها وطبيعة سطحها، واعتدال مناخها ، فهي تقع في موقع وسط معتدل بين التل والصحراء، فسهولها الخصبة، ارتوت من مياه الأمطار والأنهار، وهي تنتج كل المحاصيل (البلدان لليعقوبي 197) أما العامل الثاني فهو العامل البشري ويعود لسياسة الأئمة الحكيمة، ودورهم الفعال في تحسين أوضاع البلاد والعباد، وارتبط ذلك تحديداً بعصر الأئمة خاصة الاوائل، حتى إذا انتهى عصرهم تراجعت هذه الحواضر عن عمارتها و مكانتها ورقيها.

وتوفيرا للمياه أيام الجفاف أقام الأئمة خزانات للمياه محكمة البناء، تشمل أحواضاً واسعة، تستطيع هذه الأحواض أن تحفظ كميات معتبرة من المياه إلى أيام الجفاف فيتم السقي بها، كما شق الأئمة القنوات ومدُّوها إلى الدور

والبساتين، وهكذا تمت الاستفادة من مياه الأنهار في مجالات الري المختلفة (بحاز، المرجع السابق ، 156) ويذكر ابن الصغير أن الإمام عبد الرحمن بن رستم لما استقبل الأحمال الثلاثة الأولى، وزع منها على الفقراء، وشرع في إحياء الموات، وغرس البساتين وإجراء الأنهار، واتخاذ الرحاء(ابن الصغير، المصدر السابق، 12)

واستطاع الإمام عبد الرحمن وخلفه أن يجعلوا من تيهرت والمدن الإباضية الأخرى مثالا للمدينة الآهلة بالسكان كثيرة الآرزاق، حتى سُمِّيت بعراق المغرب(اليعقوبي، 1422. ص192) ففي ظل الإباضية كانت مدينة كبيرة خصبة واسعة البريّة والزروع والمياه (الاصطخري، المسالك والممالك، ، 2004 م، ص34) يصفها الحموي: «مدينة تاهرت مدينة مُسَوّرة لها أربعة أبواب: باب الصفا وباب المنازل وباب الأندلس وباب المطاحن، وهي في سفح جبل يقال له جزّول، ولها قصبة مشرفة على السوق تسمى المعصومة، وهي على نهر يأتيها من جهة القبلة يسمى مينة، وهو في قبلتها، ونهر آخر يجري من عيون تجتمع يسمى تاتش، ومنه شرب أهلها وأرضها، وهو في شرقيها، وفيها جميع الثمار، وسفرجلها يفوق سفرجل الآفاق حسنا وطعما،» (الحموي، معجم البلدان، ، 1995 م، 8/2)

هذا عن تيهرت أما عن وارجلان فهي الأخرى كانت غنية بأشجار النخيل، ومحاصيل التمور، وغيرها مما يُنتج في الصحراء يقول المراكشي صاحب الاستبصار: إلى بلد وارجلان في طرف الصحراء مما يلى إفريقية: وهو بلد خصيب كثير النخل والبساتين، وفيه سبع مدن مسورة حصينة تقرب بعضها من بعض، أكبرها تسمى أغرم إن يكامن معناه بلاد الشهود، وفيه حصن العهود. وهى بلاد كثيرة الزرع والضرع والبساتين، كثيرة المياه (مؤلف مراكشي، الاستبصار في عجائب الأمصار، ، 1/ 224)

2.3 مساهمة الأئمة في تنشيط حركة التجارة:

أسهم الأئمة مساهمة مباشرة في رواج حركة التجارة خاصة تجارة الذهب، ولا بد ان المجنمع التيهرتي قد تأثر بصنيع أئمته فاتجه جله إلى ممارسة التجارة، وأعتقد أن هذا الاهتمام بالتجارة بقي قائماً إلى اليوم في المجتمعات الإباضية التي تشتهر بالتجارة اكثر من غيرها من النشاطات، تقليداً لسير الأئمة الرستميين. ومن الأمثلة عن ذلك هو وإسهام الإمام عبد الوهاب كان بالتجارة في الذهب، فهو من أبرز التجار الذين جلبوا الذهب من السودان الغربي (بحاز، المرجع السابق ، ص232)

ولم تعرف الدولة الرستمية أياما صعبة بفعل السياسة الرشيدة التي اتبعها الأئمة منذ عهد الإمام عبد الرحمن بن رستم، ومن هذه السياسة تفعيل نظام الرقابة من خلال دور الحسبة والقضاء في إقامة العدل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إلى جانب تنشيط الحياة الاقتصادية الزراعة والصناعة والتجارة(بحاز، المرجع السابق، ص253)

وكان للانفتاح الخارجي خاصة على أمويي الأندلس دورا كبيرا في تنشيط حركة التجارة، وكان أفلح بن عبد الوهاب قد ورث دولة مستقرة الأركان الداخلية والخارجية، فقد كان جده الإمام عبد الرحمن بن رستم(160هـ- 171 هـ) قد أرسى معالمها الداخلية، وكان أبوه عبد الوهاب قد أرسى علاقاتها الخارجية (تاريخ الجزائر في القديم والحديث 2/ 65) فكان عصر الإمام أفلح -الذي دام خمسين سنة حسب ابن الصغير- (190 - 240هـ) أزهى عصور الدولة الرستمية، فكثرت النعم، وعمت جميع طبقات الشعب وشرائحه، وبلغت الدولة ذروة ازدهارها (بحاز، المرجع السابق، ص252)

بفضل سياسات الأئمة أصبحت الدولة الرستمية وعاصمتها تيهرت مركزا تجاريا وزراعيا ضخما، يقصده التجار فيبيعون ويبتاعون كل ما يحتاجون إليه، فقد كانت ملتقا تجاريا.وانعكست هذه الاوضاع على المجتمع التاهرتي فتنافسوا في البنيان، وحفر القنوات والأنهار، وإقامة الجنان والبساتين، ويشهد ابن الصغير لتيهرت وأئمتها قائلا: قصدتها ((الوفود والرفاق من كل الأمصار وأقاصي الأقطار...ليس أحد ينزل بهم من الغرباء إلا استوطن معهم وابتنى بين أظهرهم، لما يرى من

رخاء البلد، وحسن سيرة إمامه...وأمانه على نفسه وماله، حتى لا ترى دارا إلا قيل هذه لفلان الكوفي وهذه لفلان البصري، وهذه لفلان القروي)) (ابن الصغير، المصدر السابق، ص ص 12-13)

و تميزت تيهرت بموقعها بين حواضر الغرب الاسلامي فكانت حلقة وصل بينها، كما أنها تمثل ملتقا للقوافل التجارية، ربطت بين القيروان وفاس من جهة، ومن جهة ثانية بين الصحراء والأندلس، إلا أن الموقع وحده لم يكن ليحقق النشاط التجاري لولا مساهمة أئمة الدولة في تنشيط حركة التجارة، ومن ذلك إعداد الطرق والمسالك للحركة التجارية، يقول ابن الصغير: واستعملت السبل....إلى جميع البلدان، من مشرق ومغرب بالتجارة...والناس والتجار من كل الأقطار تاجرون(ابن الصغير، المصدر السابق، ص ص 12-13).

كما كان للأئمة قوافلهم الخاصة المتجهة نحو المشرق، وكان الإمام عبد الوهاب من الذين كثرت أموالهم بفعل الاتجار في عهد إمامة أبيه، وكانت لبعض الأئمة اهتمام بالتعامل مع ممالك السودان، وهو ما يذكره أستاذنا الدكتور إبراهيم بحاز حيث يقول: «ولا نعرف بالضبط المملكة السودانية التي توجهت إليها السفارة (سفارة من الإمام أفلح) ولكن الذي يهمنا هو أن الأئمة أنفسهم كانوا مشاركين في تجارة الذهب مع السودان، ومن المهتمين بأرباحها» (بحاز، المرجع السابق ، ص 232)

وتمكن الأئمة من نشر الاستقرار والأمن الداخلي، ما شجع الناس على ممارسة مختلف الأنشطة الاقتصادية، خاصة الزراعة فهي النشاط الأول الأنسب للبيئة الرستمية، يذكر ابن الصغير أن أبا حاتم أخرجه والده الإمام مع وجوه زناتة ليجيروا قوافل محملة بأموال لا تحصى خافوا عليها من قبائل زناتة (ابن الصغير، المصدر السابق، ص 50)

وإلى جانب امن التجار هناك مراقبة السوق، ومن مظاهر الاهتمام والحرص على ضمان السير الحسن لعمليات التبادل التجاري عين الأئمة على السوق مشرفين بمثابة مراقبين ومحتسبين، يقومون بمراقبة السلع ومدى سلامتها، وامكاييل والموازين ومدى دقتها ، وكان يُدعى هذا العامل ب"المشرف على السوق" يراقب نظافة السوق، ومعاملات الناس، بل حتى معاملة الناس لدوابهم، وإجمالا فهو يقوم بكل ما تقتضيه اعمال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر(موسى لقبال، الحسبة المذهبية، ص33)

ورغم الاختلاف المذهبي بين الإباضيين في تيهرت، والأندلسيين في العهد الأموي، إلا أن الأئمة غلَّبوا مصالح البلاد والعباد على الانتماء المذهبي، والأمر كذلك كان مع الاغالبة الموالين للعباسيين والأدارسة الموالين للعلويين، فكلا الدولتين يمثل عدوا للرستميين والأمويين، وأدت هذه السياسة الحكيمة إلى تنشيط الحركة التجارية بين الرستميين والأمويين في الأندلس، وأفادت الأندلس من حبوب ومواشي تيهرت، وسلع المشرق، كما أفادت تيهرت إفادة كبيرة من حضور الأندلسيين في عمليات شتى خاصة البناء والحرف والزراعة (بحاز، المرجع السابق، ص ص 203- 204-205)

كما كانت الحركة نشيطة أيضا مع المشرق خاصة العراق حيث البصرة مهد المذهب الاباضي، فكانت حركة السلع خاصة الكتب نافقة بين الطرفين، وكانت بذلك تيهرت جسرا يربط بين المشرق والأندلس وسلك أئمة الدولة الرستمية مسلكا سمحاً في التعامل مع العناصر غير الاسلامية، وأسهم هذا المسلك في تنشيط حركة التجارة داخل الدولة، فكان بها تجار يهود ونصارى وروس(بحاز، المرجع السابق ، ص203)

3.3 الصناعة:

أما البحث في مجال الصناعة عند الرستميين فلا نجد سوى صناعة ارتبطت بالحاجات اليومية تتعلق بالمأكل والملبس وحاجات المسكن، كما ارتبطت بأدوات الزراعة وبعض الحرف، وهنا نتساءل كيف لهؤلاء الأئمة الذين ينحدرون من الحضارة الفارسية لم يهتموا وينقلوا بعض مظاهر الصناعة الفارسية ولو في مجال الصناعة العسكرية؟! والإجابة عن هذا السؤال تتمثل في احتمال أن اهتمام هؤلاء الأئمة بمسائل الدين وخاصة أصول الحكم صرفهم عن الاهتمام بالجوانب الأخرى، ولو كان لهم اهتمام من اهتمامات آبائهم لاهتموا بفنون القتال، فالأئمة ينحدرون من نسل القائد العسكري رستم حسب جل المؤرخين(ابن خلدون، العبر، 146/6) كما أن موقع تيهرت الداخلي جعلها بعيدة عن الاهتمام بالصناعات المتعلقة بالبحر كبناء السفن وغيرها، ولا يعني ما ذكرته سابقا أن تيهرت لم تعرف أي صناعة، لقد عرفت نشاطاً حرفياً يضاهي ما كانت عليه المدن الداخلية الأخرى كالقيروان أوفاس كما يقول ابن الصغير(ابن الصغير ، المصدر السابق، ص49)

4. خاتمة:

عاش المغرب الأوسط في ظل الدولة الرستمية أوضاعاً حسنة، بدليل أنها أصبحت مقصداً للناس من كل البقاع الاسلامية، بل وقراراً لهم، إذ أننا نجد عناصر شتى فيها، فإلى جانب البربر والعرب الاوائل هناك العجم من بلاد فارس والعراق، وهناك الزنج من بلاد السودان الواسعة، وهناك الأندلسيين، وغيرهم ، هذه العناصر ما كانت لتجتمع لو أنها وجدت ضيقا في المعيشة، وتضييقاً في التعايش، ومؤرخ الدولة الرستمية ابن الصغير المالكي التاجر يشهد بهذا الرخاء المادي، الذي من مظاهره وفرة في السلع الذي لا شك أنه يؤدي إلى إنخفاض في الأسعار،

وعرفت تيهرت وجُل بلاد المغرب الأوسط حالة استقرار و يسر في الأحوال الاقتصادية والاجتماعية طيلة عهدها، لكن أئمة الدولة في المرحلة الاخيرة كانوا أداة في إضاعة ما حققه الأئمة المؤسسين للدولة، فاتجه الأئمة المتأخرين إلى إضاعة المال إما زهداً فيه شأن يعقوب بن أفلح الذي لا يحبس بيده دينارا ولا درهما أو إهمال عوامل تحصيله بانتشار الفتن بدل الأمن، وإهمال الأوضاع بدل الاهتمام بها، وابن حوقل الذي توفي في النصف الثاني من القرن الرابع يصف مدينة تيهرت بعد مدة من زوال العهد الرستمي بالفقر : ((وقد تغيّرت عمّا كانت عليه وأهلها وجميع من قاربها من البربر، فى وقتنا هذا فقراء بتواتر الفتن عليهم))

وتخلوا المصادر على اختلاف مذاهب أصحابها من ذكر أي دور سلبي لفقهاء وأئمة الإباضية في الحياة الاقتصادية، أو الممارسات المالية المجحفة، بل يذهب الباحث محمود إسماعيل إلى القول: إن أوضاع المغرب الأوسط كانت سيئة في العهد البيزنطي، وكذلك العهد الأموي، ولم تتحسن إلا في عهد الأئمة الإباضيين.

وتعود هذه الحالة الاقتصادية النشيطة إلى عاملين أساسيين هما السياسة الحكيمة للأئمة خاصة الاوائل، والموقع الجغرافي الاستراتيجي، وتظهر لنا سياسة الأئمة في ما يلي:

-اختيار مؤسس الدولة عبد الرحمن بن رستم لموقع تيهرت (عاصمة الدولة) يحقق الامنين السياسي والاقتصادي.
-عمل الأئمة والفقهاء على تخطيط محكم للمدينة بما يسمح لإعمارها والاستقرار فيها وممارسة كل النشاطات.

-عمل الأئمة ونجاحهم في تنشيط حركة التجارة الداخلية والخارجية، رغم موقع الدولة بين قِوى معادية في بعض الاحيان.

-توفير الأمن للمسالك التجارية والأسواق من خلال الرقابة عبر جهاز الشرطة ورجال الحسبة.

-قيام الأئمة على رعاية أحوال الفئات المعدمة في المجتمع.

5. قائمة المراجع:

- الاصطخري، الكرخي أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي، المسالك والممالك، دار صادر، بيروت، 2004 م.
- ابن عبد الحكم، عبد الرحمن بن عبد الله أبو القاسم المصري، فتوح مصر والمغرب، مكتبة الثقافة الدينية، عام النشر: 1415 هـ
- الحموي، شهاب الدين الرومي ، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ط2، 1995 م
- ابن حوقل محمد بن حوقل البغدادي الموصلي، أبو القاسم ، صورة الأرض، دار صادر، أفست ليدن، بيروت، 1983 م
- ابن خلدون عبد الرحمن ، العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تح: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، ط2 ، 1408 هـ - 1988 م.
- الدرجيني، أبو العباس، طبقات المشائخ بالمغرب، تح: إبراهيم طلاي، مطبعة البعث، قسنطينة، 1974.
- الشماخي أبو العباس أحمد بن سعيد، كتاب السير، طبع حجري، قسنطينة، 1301هـ
- ابن عذارى المراكشي، أبو عبد الله محمد بن محمد (ت: نحو 695هـ)، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تح: ج. س. كولان، إ. ليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت – لبنان، ط3، 1983.م
- السلاوي شهاب الدين أبو العباس أحمد بن خالد بن محمد الناصري الدرعي الجعفري السلاوي (ت: 1315هـ) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تح: جعفر الناصري و محمد الناصري، الناشر: دار الكتاب - الدار البيضاء.
- مؤلف مجهول من أهل مراكشي (توفي: ق ٦هـ)، الاستبصار في عجائب الأمصار، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ط: 1986 م.
- اليعقوبي أحمد بن إسحاق (ت: بعد 292هـ) دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1422.
- إسماعيل محمود، عبد الرازق ، الخوارج في بلاد المغرب، دار الثقافة، ط2، الدار البيضاء، 1985.
- بحاز إبراهيم ، الدولة الرستمية دراسة في الأوضاع الاقتصادية والحياة الفكرية، نشر جمعية التراث، القرارة، المطبعة العربية، غرداية، 1994.
- الحبيب الجنحاني، دراسات في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمغرب الاسلامي، دار الغرب الإسلامي، ط2، بيروت 1986، بوروبة رشيد ، الدولة الحمادية تاريخها وحضارتها، الطباعة الشعبية للجبش، الجزائر، 2007.
- الزركلي خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الدمشقي (ت: 1396 هـ) دار العلم للملايين
- ط15 - أيار / مايو 2002 م

- سعد الله أبو القاسم ، تاريخ الجزائر الثقافي، دار البصائر للنشر والتوزيع- الجزائر، ط: 2007 م، عن ط دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى - 1998 م .
- شوقي ضيف، تاريخ الادب العربي، دار المعارف – مصر، ط1، 1960.
- مجموعة من المؤلفين، الجزائر في التاريخ (العهد الإسلامي) المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1984.
- الميلي مبارك بن محمد الجزائري، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، تق: محمد الميلي، المؤسسة الوطنيّة للكتاب بالجزائر، 1986.
- موسى عز الدين أحمد ، النشاط الاقتصادي في المغرب الاسلامي خلال القرن السادس الهجري، دار الشروق، ، ط1، بيروت 1983.